

في الأدب المقارن

بيئات الأدباء

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ نغرى أبو السعود

أثر البيئة في الانسان ومجتمعه وعلومه وفنونه من التراميس التي اهتم العلم الحديث بكشفها وتتبع مظاهرها والرجوع إليها في شتى الدراسات . وأثر البيئة في أدب كل أمة على إطلاقه واضح مشاهد ؛ بيد أن لكل أديب بيئة خاصة داخل البيئة العامة التي تحيط به وبغيره من أدباء أمة ، وهذه البيئة الخاصة أثر بنيد في تكيف عبقريته وتوجيه ميوله وصيغ نظراته إلى الحياة وتكوين فهمه للأدب ، وهذه البيئة في أكثر الأسايين فضل توجيه عبقرته إلى الأدب دون غيره من الفنون والحرف الانسانية فالوراثة لها أثر في فن الأديب ، لاشتراكها في تكوين مزاجه وميوله ، وذلك الأثر الوراثي ملحوظ في أدب شلي وبيرتون من شعراء الانجليز ، بل في حياتهما إذ عاش كل منهما ساخطاً قلق المقام مضطرباً بين البلدان مساجلاً المجتمع حرباً لاتهدأ ، وقد كان كلاهما منحدرأ من أسرة أرستقراطية عرفت صفات الجراح والتمرد في غير واحد من أسلافها . وللوراثة أثرها الواضح في أدب ابن الرومي الذي جاء لاتبائه إلى الروم مخالفاً أدب غيره من غول العربية ، في النظرة إلى الحياة والطبيعة ؛ وفي استقصاء المعاني وتوليدها

ولتكوين جسم الأديب ، بين الصحة والمرض والكمال والنقص والوسامة والدماثة أثره كذلك في أدبه ، فالأديب السليم الجسم يكون صافي المزاج معتدل النظرة إلى الحياة ، والآخر المعتل الصحة المنهوك بالأوصاب ، كالمعري وابن الرومي في العربية ، وبوب وسويقت وجراي في الانجليزية ، يكون ضيق العطن أوقاتم النظرة إلى الحياة أو كثير التهمة على معاصره شديد الشغب معهم . وقد قيل قديماً إن للأدب ضريبة على محترفه يتقاضاه إياها من ذات جسمه أو ذات نفسه ، فلا تكاد ترى أديبا إلا محروبا أو شقيا أو معسرا ، ولعل فقدان الأديب لبعض

قلت : « وكيف كان ذلك ؟ »

قال : « إن نظره بعيد جداً يبصر كل شيء - أي شيء - على مسافة ميل ، ولكن إذا كان الشيء قريباً منه ، صعبت عليه الرؤية الدقيقة .. وأذكر أنه قام بيني وبينه خلاف على المسافة بين رجلي الدجاجة ،

فصحت به : « إيه ؟ »

فقال : « لا تصح هكذا .. إتنا في مطعم .. فهل تريد أن يلتف حولنا الناس ؟ »

قلت : « معذرة .. لقد نسيت أن ههنا ناساً .. الحق أن كلامك استبد بعقلي . تفضل ،

قال : « أشكرك .. نعم اختلفنا على المسافة بين رجلي للدجاجة .. هو يقول إنها خمسة سنتيات وأنا أقول إنها أقل بكثير .. وأخيراً اتفقنا على قياسها بالضبط والدقة ، فقال أبي هات الدجاجة ، فجئت بها .. تناولتها من رجلها فقال كيف تريد أن تقيس وقد ضمنت رجلها . فتناولتها من عنقها ، فصارت تلعب وتحاول أن تفلت وتضرب برجلها فاستحال قياس ما بينهما ، ثم سكنت ولكن رجلها بقيتا مضمومتين فاتفقنا على تركها على الأرض ، وحاولنا أن نفرقها بالسكون بقليل من الحب رميناهما لثقلتهن ، ولكنها يا أخى لا تسكن أبداً .. حركة دائمة ،

قلت : « لماذا لم تنتظرا حتى تنام وحينئذ يتيسر القياس كما تشاء ان ؟ »

قال : « والله فكرة ،

قلت : « هل تعني أن تقول إنك لم تعرف إلى الآن أيكما المصيب وأيكما المخطئ ؟ »

قال : « بالطبع أبي هو المخطئ .. ألم أقل لك إن نظره بعيد ؟ »

قلت : « آه صحيح .. »

قال : « طبعاً ،

قلت : « طبعاً ،

وكانت هذه نهاية الحديث في يومنا ذاك ، فعدت إلى البيت وقيدته لثلاث أنساء

ابراهيم جبر القادر المازني

ما يتمتع به سواء من بهجة الحياة من دواعي إرهاب حسه وصرفه إلى التأمل وعطفه إلى الأدب، ولعل المعري لولا عماء وانجاسه عن متعات الدنيا على ذلك الوجه، لما حفل بالتفكير في الأرض والسماء وأصل الخلق ومصير الإنسان وهم جرا وللثرية والنشأة المنزلية أثرهما في تكوين الأدب، فكثيراً ما تنجس عبقريته الناشئ إلى الأدب لأن أباه أو كافله مشغول بالأدب، وقد كان ذلك شائعاً بين العرب، إذ كان الآباء يقومون بتأديب أبنائهم، فنشأ كثير من الأدباء كالصاحب وابن العميد وابن المعتز وابن زيدون في بيوت فضل وأدب. وقال ياقوت في ترجمة المعري: «وكان في آباءه وأعمامه، ومن تقدمه من أهله وتاخر عنه من ولد أبيه ونسله، فضل، وقضاء وشعراء، أنا ذا كر منهم من حضرني لتعلم نسب في العلم، ولحظ البيئة المنزلية من الرقي أو الحطة أثره كذلك في أخلاق الناشئ. ومنزعه، ومن ثم يتسم أدب الشريف الرضي في العربية وتيسون في الإنجليزية بنوعة التسامي والتدين، لاتبائهما إلى أرومة شريفة دينية، بينما تبدو لومة العامية والتبذل في أشعار بشار وأبي نواس

ولنصيب الأدب من الغنى أو الفقر أثر بعيد في حياته وعقليته وأدبه، فلا بد للأديب من حظ من المال يستطيع معه أن يتفرغ إلى فنه أو يتفنن في ابتكاره، أما إذا كان لا يكسب رزقه إلا بمجهود جهيد فهذه في الأدب حقه. والأديب المعسر المحقق كابن الرومي لا ينفك شاكياً في شعره متحرراً؛ ولا يشكو هذه الشكوى أديب نشأ في بيت نعمة كابن المعتز أو نجح في إدراك الغنى كالبحتري، ف شعر هذين أكثر امتلاء بوصف اللذات وأوقات الصفاء. وقد وجد ابن الرومي على البحتري وجهه حسداً وغيظاً، فرد عليه البحتري رداً هادئاً وأتحفه بهدية، فقل المظلمن إلى نفسه الراضى في بحبوخته، ولم يطلب الطغرائي شططاً حين قال أريد بسطة كف استعين بها على قضاء حقوق للعللى قبل ولهنوع الثقافة التي تلتقاها الناشئ. والأدب الذي يقرأ، والأستاذ الذي يأخذ عنه، والأديب الذي يقدمه ويشغف بآثاره، والأدب الأجنبي الذي يدرسه، لكل ذلك أثره في توجيه أدبه وفلسفته في الحياة. فأراء المتزندقة التي فشت في صدر العصر العباسي ظاهرة الأثر في شعر بشار وحماد وأبي نواس، والآراء الفلسفية التي ذاعت بعد ذلك ظاهرة في أشعار الطائي والمعري والمتنبي؛ ولم يتأثر أدباء العربية بأدب أجنبي تأثراً ذا بال، أما أدباء الإنجليزية ففضلاً عن اغترافهم جميعاً من مناهل الأدب

اليوناني، كان منهم من تأثر بالأدب الإيطالي كسبنسر، وبالآلماني كشلي وسكوت وكارليل، وبالفرنسي ككثير من كتاب القرن الثامن عشر وشعراء القرن السابع عشر؛ وكما أثر مذهب أبي تمام الشعري في تليذه البحتري وفي المتنبي وغيرهما، كان للمتون أثر بعيد في كثير من شعراء الإنجليز منهم وردزورث وتيسون ولجيل الأدب، بسياسة وأدبه وأخلاقه وأزيائه وفنونه، أعظم أثر في أدبه: فبعض الأدباء ينحاز إلى حزب سياسي ويخصص جانباً من كتاباته للدفاع عنه، كما كان السكيت ودعبل وعمارة النيني شيعيين ينتصرون لآل البيت؛ وكما كان بشار عقلياً بالولاء ينتصر لمضر ويفخر بغضبها التي تهتك حجاب الشمس؛ وكما كان ابن الرومي علوياً بالولاء أيضاً. وكان أدباء الإنجليزية أكثر اتصالاً بشؤون المجتمع والسياسة وتأثراً بها، فعرضوا لمشاكل عصورهم في أشعارهم وقصصهم، وحين ملأ دكنز قصصه بوصف أحوال الطبقات العاملة، إنما كان متأثراً بأحوال عصره الصناعي، وإذا امتلأ شعر المتنبي بذكر القنا والصوامر والفتكة البكر ونضرب أعناق الملوك، فإنما كان ذلك صدى عصر التناحر والقتال الذي عاش فيه

وتؤثر حرفة الأدب كذلك في أدبه، موضوعه ولغته ونفسياته: فالأديب الجندى كعنبرة وأبي فراس لا يكاد يخوض في غير حديث النجدة والعزة والبأس وإطاحة الرؤوس عن الأجسام؛ والأدباء الوزراء الذين عرفوا في الدول الإسلامية تتعلق خيرة كتاباتهم بالسياسة والولاية والعزل وهم جرا؛ والشاعر المداح كالبحتري لا ينفك عن ذكر أحوال الملك ومظاهر أهله؛ وتوماس هاردي الذي كان مهندساً معمارياً مشغولاً بفن العمارة لا يزال يبدى. ويعيد في وصف العائز والصروح في شعره وقصصه، ويستخدم في ذلك من المصطلحات العلمية ما لا يكاد يفقهه إلا خبير مثله بتلك الشؤون؛ أما الأديب المنقطع إلى الأدب فلا يكاد يخوض في غير شؤون الأدب وسير الأدباء. وقد أورد الجاحظ هذه الحقائق مورد الفكاهة في رسالة صناعات القواد، إذ جعل الطبيب والخياط والحجاز والمؤدب وصاحب الحمام وغيرهم، يتحدثون في الأدب وينظمون الشعر فيستخدم كل منهم مصطلحات حرفته في استعاراته وتشبيهاته

وللاقليم الذي يختاره الأديب مستقراً ومقاماً، والأقاليم التي يرحل إليها في أدوار حياته، أثر عظيم في موضوعاته وأسلوبه: إذ هو يشتق أسباب القول مما يحيط به في حله ونزحاله، ولا ريب

فأدباء العربية بعد قيام الدولة الإسلامية ودخول الأدب طوره الفنى الراقى ، كانوا يأخذون أنفسهم بضروب من القول يطلبون بها البراعة الفنية أو الشهرة أو المظلة والنجاح ، كالتمدح بجليل الصفات والتفاخر بتالد المجد ومدح الأمراء ، وجروا في ذلك على سنن مألوفة واغترفوا من مناهل مطروقة ، حتى تشابه أولهم وآخرهم وبعيدهم وقريبهم . فاذا قرأت مئات القصائد التي نظمها مروان بن أبي حفصة وبشار وأبو تمام والبحرئى وغيرهم في مدح الخلفاء ، كى ترى أثر البيئة الخاصة للشاعر في كل ذلك فلن تظفر بباطل ، لأنهم إنما نظموها لأغراض مادية وعلى أنماط مأثورة ، لادخل للنفس ولا لتراثها الفكرى فيها . وإذا قرأت قول أبي نواس :

ومستعبد لإخوانه بترائه لبست له كبرا أبر على الكبر
لقد زادنى تيبا على الناس أنتى أراى أغناهم وإن كنت ذا فقر
فوالله لا يبدى لسانى حاجة إلى أحد حتى أغيب فى القبر
فلا يطعن فى ذاك منى سوقة ولا ملك الدنيا المحجب فى القصر
كدت تحسب قاتل هذا الشعر شريفا حسيا عفيفا ، يزهد فى غرور الدنيا ويقنع بالقليل استمساكا بالأنفة والكبرياء ، ولم تضر هذا الفخر المغرق إلى ذلك المداح السال الذى أفاق العمر فى اجتداء عطايا الحكم ليذرهما فى انتهاب اللذات الجسدية ، وماذا لك إلا أن أبا نواس اتقى فى نظم هذا الشعر الطنان أثر أشرف الجاهلية الذين كانوا يتمدحون بالأنفة ، وأراد أن يظهر أنه لا يقصر عن شأوم فى ذلك الباب من أبواب القول . والأدب العربى حافل بهذا الضرب من الإنشاء التقليدى الذى لا أثر فيه يذكر للشخصية المستقلة والبيئة الخاصة

هذا ، ونشأة كثير من أدباء العربية بمجولة ، وينتمى الأولى غامضة ، وأكثرهم لا يظهرون فى ضوء تاريخ الأدب إلا حين يصلون إلى ذرا الأمير ، وقد كان ذلك الوصول غاية أكثرهم ؛ ومن ثم نرى فى تاريخ الأدب العربى بيئتين كبيرتين تتلو أحدهما الأخرى وتشملان أكثر أعلام الأدب العربى : الأولى بيئة القتال التى كانت بيئة الجاهلية ، وكان الجلاد فيها هم الأشراف ، والتمدح بالبلاء فى الوغى هم الشعراء ، وكان الأشراف فى كثير من الأحوال هم الشعراء وهم الخطباء الفحول ، يشفون بلامهم فى الهجاء يلاعنهم فى القصيد والارتجال ؛ والبيئة الثانية بيئة البلاط التى اضطرب فى محيطها أكثر الشعراء والكتاب بعد الاسلام وقيام الدولة ، وتأثروا بها ونظموا فيها ونثروا

فبيئات أدباء العربية المادية والذهنية كانت كثيرة التشابه من

أن الأدب الكثير الرحلة يكون أوسع أفقا وأغزر مادة وأعمق فكرة من الأدب القاعد ، إذ كان من يعيش يرى ومن يسير يرى أكثر كما يقول المثل العامى . وقد كان وردزورث يقطن مقاطعة البحيرات فى إنجلترا وكان كثير التجوال بين الجبال والروابي ، فجاء لفظة مجردا عاريا عرى الصخور وتجردها ، وكثرت فيه ألفاظ الوحشة والوحدة وهلم جرا . ونشأ كيلنج فى الهند فامتلا شعره وقصصه بوصف غياضها وأدغالها ، وحفل بالتعصب الجنسى المتطرف ؛ وترك رحلات المتنئى بعض الآثار فى أشعاره ، من وصف الطبيعة كوصف بحيرة طبرية وشعب بوان ، إلى وصف الأحوال السياسية فى مثل قوله :

بكل أرض وطئتها أم ترعى بعبد كأنها غنم
قالى البيئة التى ينشأ فيها الأدب وتضطرب فى محيطها حياته ، مرد ما يمتاز به أدبه من اتجاه خاص وطرق موضوعات دون غيرها ، وتناول لها على نحو خاص ، وما يتصف به من سمو أو ضعة ، وورع أو استهتار ، وفكاهة أو انقباض ، وتفاؤل أو نشاؤم ، وعمق أو سطحية ، يختلف حفظه من كل ذلك عن حظوظ أبناء أمه بل أبناء جيله بل أصحابه وخلفائه ؛ وبسبب عوامل البيئة تلك يختلف عنترة وعمر بن أبى ربيعة والشريف الرضى والمتنئى فى العربية فى الموضوع والنزعة واللفظ والاسلوب ، كما يختلف وردزورث ويرون وسكوت وشلى فى الانجليزية ، حتى يستغنى الثانى شعر الأول أى استغناث ، ويحمل الثانى رأيه فى الأخير فى قوله : ذلك الملحد شلى ، وما ذاك إلا لاختلاف ما يحمل رأس كل منهم من آثار الوراثة والثقافة والعقيدة والتربية والنشأة ، على تعاصرهم وتشاركهم فى وجوه أخرى ، وعلى كونهم يعدون اليوم أبناء مدرسة واحدة .

على أن اختلاف بيئات الأدباء أشد ظهورا فى الانجليزية منه فى العربية ، لأن أدباء الانجليزية أكثر اضطرابا فى المجتمع وإدخالا له فى أدبهم وأكثر ارتحالا فى البلدان وذهابا فى آفاق الفكر وإعرابا عن أفكارهم الصميمة وآثار تجاربهم ، ولأن المجتمع الانجليزى تغير وتجدد على توالى العصور من عهد إليزابيث إلى الوقت الحاضر مالم يتغيره المجتمع الاسلامى ، والثقافة الانجليزية تطورت بتقدم العلوم مالم تتطوره الثقافة العربية ، فالمحافظة كانت أغلب على المجتمع والفكر العربى ، وهى أيضا كانت سمى الأدب العربى وديدن أدباء العربية ، ومن ثم تشابهوا كثيرا فى الموضوعات والأساليب على تباعد المواطن والعصور .

بمناسبة ذكرى المولد

للاستاذ على الطنطاوى

احتفل العالم الاسلامى كله أول أمس - بذكرى مولد

- سيد العالم وخاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الاحتفال يعد فرصة سانحة من فرص الدعوة إلى الاسلام ، والسعى في سبيل الإصلاح ، تفيدنا فائدة كبيرة إذا نحن عرفنا طريق الاستفادة منها ولم نجعلها قاصرة على إقامة السراقات الفخمة ، وإيقاد آلاف من المصابيح الكهربائية ، وإطلاق البارود في الجو ، والاجتماع على ترتيل قصة المولد والتطريب فيها ، وتلاوة الأغاني والأناشيد ، وأكل الحلويات والأنقال ، والتسلي واللهو والطرب ، وإضاعة الأموال بلا حساب

- وطريق الاستفادة منها ، أن يبحث الخاصة من رجال وأولياء الأمر ، في مجالسهم واحتفالاتهم أدواء المسلمين اليوم ، ويصوروها ويفتشوا عن أدويتها ، وأن يضعوا خططاً جديدة للدعوة ، ومناهج للعمل المثمر ، وأن تشرح السيرة النبوية للعامة في مجامعهم واحتفالاتهم ، وينبهوا إلى مواطن العبرة فيها ، لأن ذلك هو المراد من الاحتفال بالمولد ، لا سرد الأخبار الموضوعة . والعجائب والخرافات ، واللهو والطرب ، وأن تبين لهم مزايا الاسلام وفوائده ، وأصوله ومبادئه ، لأن الكثيرين من المسلمين لا يعرفون من الاسلام إلا اسمه ، ولا يفرقون بين طبيعة الاسلام وطبائع الأديان الأخرى ، ولا يعلمون أن الأديان كلها أديان فقط ، بمعنى أنها جاءت بعقائد وعبادات وأخلاق ، أما الاسلام فهو دين ، وهو تشريع ، وهو سياسة ، وهو أدب . وانظر في أى مسألة من مسائل الفكر الكبرى ، أو أى أمر من أمور الحياة ، تر للإسلام رأياً فيه وحكماً ، فالتشريع الاسلامى أغزر أو من أغزر وأصنى المنابع التشريعية في العالم . والاسلام قد أقر الحرية الفكرية ، ووضع أصول البحث العلمي ، بما أمر به

وجوه ، والبيئات الأولى التي شب فيها كثير منهم مهمة غامضة ، وقد كان تقاد العرية قليلى العناية بأمر البيئة وأثرها في تكوين الأدب ، إنما كانوا يعرضون لبعض التواريخ الجافة المتعلقة بمولد الأديب ووفاته ورحلته إلى بعض العواصم واتصاله ببعض الحكام ، ويستحسنون بعض ما أنشأ أو يستهجنونه ، ويفضلونه أو يفضلون عليه ما قال أديب غيره في نفس الباب ؛ ولهم في ذلك بعض العذر ، إذ كانت للقول كما تقدم أوضاع وأنماط معروفة ، ياخذ الأديب بها نفسه ما استطاع ، ويحاكى المتقدمين فيها ما أمكنته براعته . أما بيئته الخاصة وتراثه الذهن والنفس ، فيذر جانبا وقلما يدخله في أدبه

ولا يرد ذكر البيئة وأثرها في كتب النقد العرى إلا عرضاً ، كالذى ورد من أن ابن الرومى سئل لم لا يشبه كتشبهات ابن المعتز ، فقال لسائله : أنشدني شيئاً من قوله الذى استعجزتني عن مثله ، فأنشده بعض أشعار ابن المعتز التي يشبه فيها النجوم والزهور بالفضة والعنبر ومداهن الغالية وهم جرا ، فصاح ابن الرومى : واغوثاه ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ما عيون يته ، وأنا أى شيء أصف ؟ ووضع الجاحظ رسائله سألقة الذكر على لسان أرباب المهن ، فأجرى القول فيها مجرى الدعابة والمغالاة ، وكان أولى لو عرض للأمر من ناحيته الجديدة . واستعرض بديع الزمان في بعض مقاماته عدداً من قول الشعراء المتقدمين ، فقال إن أحدهم أشعر الناس إذا غضب ، والآخر أشعرهم إذا رهب ، والثالث إذا شرب وهم جرا ، فلم ير إلا أن هذه جيلتهم التي فطروا عليها ، ولم يتخيل بيئة كل منهم في ذلك أثراً

أما في الأدب الانجليزى ، ولا سيما في العصر الحديث ، فدرس أثر البيئة وعواملها من ورائة وتربية وثقافة وعقيدة ، أساس كل دراسة أدبية وكل نقد وترجمة ، والوسيلة الأولى لفهم الأديب وقدر آثاره حق قدرها ، وما ذاك إلا نتيجة ارتقاء العلوم والاجتماعيات في العصور الحديثة ، واستفادة الادب الانجليزى بمجهودات أدباء الأمم الأخرى ، كأدباء الإبطالية الذين ارتقوا بعلم تاريخ الادب ، وأدباء الفرنسية الذين هذبوا أصول النقد ، وقد درس الأدب الانجليزى وترجم أدباؤه على ضوء هذه القواعد والأصول ، فبلغ من الوضوح والترتيب ما لم يبلغه تاريخ الادب العرى بعد

فهمى ابن الصعود